

بديع الزمان الهمداني أول مديني يعرفه الأدب العربي

المقامات.. كتاب يسخر من الحمقى ويحتفي بالتفاصيل



الشعر يصنعه الريفيون، لكن النثر يخطه أهل الحضرة.. مقولة تؤكد ما مقامات بديع الزمان الهمداني، هذا الكتاب التاريخي الذي عكس مرآة عصره (بغداد العباسية) لكن لا تزال معانيه وعبره وقصصه صالحة في هذا العصر وغيره، حيث الدعوة للتنوع الثقافي والحوار والاستقرار المدني الضامن للتعايش والقبول بالآخر.



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

إحدى وخمسون مقامة من القص والفطنة، والحكمة والعبرة والضحك، كان قد جمعها الموثقون والنساخون، لرجل كان، بحق، بديع زمانه في القرن العاشر.. إنه أبو الفضل أحمد بن سعيد بن يحيى بن بشر، المعروف ببديع الزمان الهمداني، ولد صاحب أشهر مقامات خلدها تاريخ الأدب العربي في همدان، ببلاد فارس عام 969 وتوفي مسموما سنة 1007.. هل أن من الحكمة أن يموت غالبية المبدعين مسمومين؟

لم يتخط أظرف أهل عصره، وأكثرهم نكاه وحكمة، أربعة عقود من عمره، لكنه ترك بصمته على جنس أدبي يكاد يكون مؤسساً له بلا منازع.. إنه فن المقامة التي نشأت وانطلقت من رحمها كل ضروب القصة القصيرة في الشرق والغرب، على مختلف مشاربها.

المدن سيدة المقام لدى الهمداني، وأهلها هم أبطال السرد وصناعة الحدث في "مجموعة قصصية" تضم 51 مقامة من الروي والإضحاك والإدهاش، ومختلف أنواع اللعب في المبني والمعنى، وعرض العبرة والمعلومة بطريقة السجع في عصر الزخارف والمحسنات البلاغية.. ليست المدينة هي الفضاء الأمثل لفن

الاحتفاء بالتفاصيل؟

كل شيء في بغداد العباسية وما جاورها من الحواضر، كان يشي برغد العيش واستتباب الأمن وترفع التمتع بالملذات، لذلك كان لزوماً على الأدباء أن يعكسوا في كتاباتهم ما آلت إليه المدينة المبنية على التنوع والاختلاف، من تفاصيل تقطع مع ثقافة البادية وتزوعها نحو الحدة في الطباع والآراء. الفكر المعتزلي الجانح نحو الفكر الأرسطوي وحسب الحوار، التنوع الثقافي المازج بين العرب والفرس، والاستقرار المدني الضامن للتعايش والقبول بالآخر.. كلها أمور جعلت من مقامات الهمداني فناً يعكس مرآة عصره.

لا مكان للعصبيات والتشنج والتنازب بالقاب في مدن تغرر بتنوعها، لذلك كان الطرف والمزاج أفضل خصلتين تطبعان حياة المدن التي بدأت تتشكل بفعل المتاخمة، وحتى التصادم والحوار.

أصل عربي

بديع الزمان الهمداني، لم يكن فارسياً حقوداً وشعوبياً كارهاً كما تزعم بعض الدراسات المغالية في عروبيتها، ذلك أنه كان، وكما تثبتت المراجع، من أسرة عربية ذات مكانة علمية مرموقة استوطنت همدان. وكان يفتخر بأصله العربي إذ كتب بإحدى رسائله إلى أبي الفضل الأسفرائيني "أني عبد الشيخ، واسمي أحمد، وحمدان المولد وتغلب المورد، ومضر المحتد". إذن، لقد استقطبنا في يد القائلين إنه من أصول فارسية، يضرر الحقد على العرب، ويريد إهانتهم بدعوى أنهم من أهل البادية ولا يرجح أو ينتظر منهم إبداعاً في المحيط الحضري الذي تشكل في أتون الدولة العباسية.

كشف الرجل عن أدب حزر النثر من الشعر، وانتصر لقيم جديدة تعنتي بالتفاصيل وحتفتي بالمعارف الإنسانية وتناقضاتها في بعدها النفسي والاجتماعي، ولم يلتفت إلى قواميس البدو التي تزخر بالتعرض والتعريض، ودم الأقرار وإحاقهم بأسماء قبائلهم ومناباتهم. بطلان يتناوبان على كل حكاية من مقامات الهمداني، وهما عيسى بن

هشام، وأبو الفتح الإسكندري.. الأول راو يكتفي الهمداني بذكر اسمه قائلاً في كل مقامة "حدثنا عيسى بن هشام، قال.."، والثاني محتال، صانع للحدث، يدعي أبو الفتح الإسكندري.

تقنية سرد مدهشة قد تبرز صوتي الراوي والبطل في مقامة واحدة، وبطل من خلالها الهمداني برأسه ولسانه السليط شارحاً أو مفسراً.. يدعي الحياض، لكنه ليس بذاك الحياض.

ينتصر بديع الزمان لفكرته دون أن تحس أو تدرى، وسيلته في ذلك هي اللغة.. ولا شيء غير اللغة.. كيف لا وهو الذي امتلك ناصيتها وجعلها وسيلته الوحيدة في الحكم والتحيز والانتقام والإضحاك.

مقامات الهمداني لا تحمي المغفلين، تنتصر للأذكاء، وحتى المحتالين منهم في تجمعات الحضرة، ولكنها، في المقابل، تضحك من ضعاف الحيلة وتجعل السجع اللغوي متكلاً لها في تلك اللعبة التي تتأمر فيها اللغة على أصحابها.

أول انتصار تسجله المدينة على أهل الريف والبادية كان على لسان الهمداني في مقاماته.. إن في ذلك بحثاً شديداً التعقيد يمكن أن يلقي به في ملعب علماء النفس والاجتماع عند العصر الحديث.

للمدينة أدبها

زخر الأدب العربي القديم بحكايات ووقائع ينتصر فيها البدوي على الحضري، وذلك بفضل الفصاحة والبداهة وامتلاك ناصية اللغة، لكن الهمداني جعل من السجع الساخر من القوافي العروضية أسلوباً للقول إن المدينة لها أدبها أيضاً.. فتوقفوا عن هذه العجرفة البلهاء.

الشعر يصنعه الريفيون، لكن النثر يخطه أهل الحضرة.. مقولة أكدها بديع الزمان الهمداني في ما يقارب الخمسين مقامة، تنوعت بين الشعر والنثر، وتوزعت بين المدن.. تقاسمها بطلان محتالان، حدد لكل منهما الهمداني ملامحه، وجعله محبباً ومحبوباً، وكانه يؤسس لذائقة أخرى، نعم، لقد أسس بديع لمزاج مختلف، مقامه الضحك، وملخصه أن "لا عزاء للحمقى والموتورين والمتفلكين".

نظن، نحن كعرب، أنه يحق لنا الاحتفاء بـ"تشيخوخ العصر العباسي"، والذي خرجت من عباءته في العصور الحديثة أسماء مثل محمود تيمور في مصر، علي الدواعي في تونس، وذكربيا ناصر في سوريا.

كل مقامات الهمداني تصلح أن تكون أفلاماً روائية قصيرة، ومكتملة الشروط الدرامية في عصرنا، ذلك أنها تعالج مشكلات لا تزال قائمة في أبعادها النفسية والاجتماعية والثقافية، وحتى السياسية.

أهم ما يميز الهمداني هو التنوع في ثقافته التي أملتتها تنقلاته فكانت ذريعة لعرض ملكته النقدية مثل المقامة الجاحظية التي تناول فيها بالشرح والتحريض ما كتبه المفكر المعتزلي الشهير.. وهلم جرا من الأمثلة التي

تبوح بها كل مقامة في قراءة بديعة للبلدان التي عاش فيها هذا الرجل البديع.

طوى الهمداني بلاد فارس، من مسقط رأسه التي تلمذ فيها على يد عدد من النحاة وعلماء الدين أبرزهم أحمد بن فارس ثم تنقل في حياته بين عدد من المدن والحواضر التي سطعت شمسها آنذاك. استقر فترة من الوقت في الري وكانت له منزلة خاصة عند صاحبها ابن عباد، ثم توجه إلى جرجان وحظي برعاية أبي سعيد محمد بن المنصور.

خاض مناظرات كان أشهرها في نيسابور التي دخلها مفلساً مثل بطله أبي الفتح الإسكندري، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يحظى بمناظرة مع أبي بكر الخوارزمي، أشهر أدباء وشعراء ذلك العصر، واستطاع بفضل فطنته

وبلاغته وحسن عبارته، التغلب والفوز في تلك المناظرة وهو ما حقق له المجد والشهرة، وجعل له مريدين كثيرين في كافة أصقاع بلاد فارس.

الهمداني الفيلسوف

الدليل على صحة ما تقدم هو أن المستشرقين قد انتبهوا إلى أهمية ومكانة مؤلفات الهمداني في الأدب العربي، وترجموها إلى اللغات الأوروبية، مثل سلفيستوخ دو ساسي، الذي ترجمها إلى الفرنسية وأي فون كويمير إلى الألمانية.

فهل أن مواطني دي موسى، أو شيلر، غافلان عن تراثها الأدبي، حتى ينتجها الهمداني، ويضعها تحت اسمه أكثر من سطر وعلامة تعجب واستفهام؟ السر والسحر الكامنان خلف مقامات الهمداني، هما أنه جعل من الدنيا "مزرعة" وزرعها بين شخص يؤغل في الجدية والظن بما تظنه العامة، وآخر يستهتر بالمفاهيم السائدة ويلقي بها في مهب الريح، ضارياً عرض الحائط بمن يعتقد دائماً بأنه على حق.

فلسفة الهمداني ليست سهلة، ولا في متناول كل من يضحك للحكاية وعلى شخصها في بعدهم الأول.. إنها تذكر بان كل جملة تقرأ من جميع أطرافها مثل مكعب متوه.

الدليل على ذلك، أن المقامة، وبشهادة ممن عاصروا صاحبها، تتضمن مناظرات في الدين ومواعظ وأحاديث شعبية، كما تقدم دروساً توعوية للناس لتحميمهم من حيل اللصوص والشحاذين في ذلك الزمان، أي أنها ذات غاية نفعية بالغة الأهمية، وبمناظرة النصيحة في أسلوب بيداغوجي مبتكر.

ويرى أبو إسحاق الحصري في كتابه "زهر الآداب" أن الهمداني قد أخذ فكرة مقاماته عن الأربعة حديثاً لابن دريد، وكانت المقامة قبل الهمداني تعني العظة كما ورد بكتاب "سروج الذهب" للمؤرخ العلامة المسعودي، بينما ذهب الجاحظ بمؤلفه "كتاب البلغاء" إلى وصف المقامة بأنها "الخطبة". إلا أن استخدام الهمداني للفظ "المقامة" على ما أنشأه أصبحت الكلمة مرادفة للرواية والحوار المتع.

الدراما الكوميديّة حاضرة بكل مواصفاتها في مقامات الهمداني، إذ تبدأ الحكاية بمصادفة قد لا يعبرها

فن يعكس مرآة عصره

القارئ انتباهها، لكنها تتنازم وفق حكمة محكمة الصنع لتنتهي إلى ما يشبه الفاجعة، ولكن بأسلوب سردي يجعله تكتشف، وقيل قرون، أن ما يعرف بالتصعيد الدرامي، سببه نفسي أكثر منه واقعي.. البس هذا ما أسسه السويدي سترنبريغ، قبل أكثر من قرن على عصرنا؟

الإثارة والتشويق عبر لغة أسيرة، تعتمد السجع وتستدرج القارئ نحو ورطة ممتعة.. هذا هو أسلوب الهمداني، خفيف الظل، طري الأسلوب وماكر الحيلة كما في جميع شخصياته.

بديع الزمان، ترجل من مقامه في المقامات، تحدث بلسان العامة، تكشف مكر نوابه، وتظنن إلى أن الأدب يمكن أن يكون ذريعة يستدرج من خلالها الكاتب قراءه إلى ما هو أدهى وأمر وأكثر تعقيداً مما يخاله النقاد السطحيون والعارفون المتحدلقون.

وفي هذا المقام يقول الباحث اللبناني بلال الأورقلي "أسس الهمداني في مقاماته لفن أثار كبيراً في الأدب العربي والعالمي، غير أن نص الهمداني نص مفتوح لكثير من الأسئلة التي لا تتعلق بتأويله فحسب، بل أيضاً بجمعه وتكوينه وتاريخه وتداوله".

لسنا بطبيعة الحال، عند مجرد عرض كتاب يعرفه هوة الأدب العربي القديم، بقدر ما نسعى للتنبه إلى مؤلف، غاية في الحساسية والخطورة، على مستوى المنطق والغاية والوسيلة، ذلك أن كل قارئ بإمكانه الاطلاع على مقامات الهمداني، كالجاحظية والبغدادية والشامية وغيرها، يستمتع بمتن الحكاية، يضحك لرزايات عيسى بن هشام ومغامرات أبي الفتح الإسكندري.. ولكن.. هل ينتبه لما أراد قوله بديع الزمان الهمداني؟

هذه المقامات التي اعتلاها قديماً واستخدمها الأدب والشاعر اليهودي الأندلسي يهوذا الحريري في كتابه "تحكموني" ثم أعاد الأديب اللبناني ناصيف الأبيجي منتصف القرن الـ19 إحياء أسلوب الكتابة بالمقامات، حيث استخدمها في تأليف كتابه "مجمع البحرين". الهمداني لم يكن يهذي، ولا يمزح.. ولا يروي مجرد مزح ونكات.. لقد كان يعرف ويقصد ما يقول.. فلننتبه إليه قبل كل هذا الأوف.



المدن سيدة المقام لدى الهمداني، وأهلها هم أبطال السرد وصناعة الحدث في "مجموعة قصصية" تضم 51 مقامة من الروي والإضحاك والإدهاش، ومختلف أنواع اللعب في المبني والمعنى، وعرض العبرة والمعلومة بطريقة السجع في عصر الزخارف والمحسنات البلاغية